الفصل الثالث

اَلشُّفَعاءُ عِنْدَ اللهِ تبارَك وتعالَى

* عِبادُ الرَّحْمنِ.
* شَفاعَةُ اَلشَّهيد.
* شَفاعَةُ قارِئ القُرْآنِ.
* شَفاعَةُ اَلـمُصَلِّين عَلَى الْجَنازَةِ.
* شَفاعَةُ القُرْآنِ.
* شَفاعَةُ سُورَتَي : الْبَقَرَةِ وآلِ عِمْرانَ.
* شَفاعَةُ سُورةِ الْـمُلْكِ.
* شَفاعَةُ الْأَذانِ.
* شَفاعَةُ الصِّيامِ.

أخرج مُسْلِمٌ فِي صحيحِه حديثًا مُطَوَّلًا فِي الشفاعةِ، رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ، جاء فيه: (يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجلَّ: [شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ] ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْها قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ) .

***

الشفاعةُ عِنْد اللهِ تبارك وتعالى ليستْ كالشفاعةِ عند البَشَر، فاللهُ تبارك وتعالى لايَشْفَعُه أحَدٌ. فلا يُضَمُّ إلَى شيْءٍ، ولايُضَمُّ إلَيْهِ شيْءٌ، فهو سُبحانهُ وتعالَى وِتْرٌ، ولايَشْفَع عند اللهِ أحدٌ إلا بإذْنِه.

وقَبولُ الشفاعةِ: تكريمٌ من اللهِ تعالَى للشُّفَعاء، وبيانٌ لحُسْن منزلتِهم عند الله تبارَك وتعالَى. فالشفاعةُ ابتداءً وانتهاءً لله عزَّ وجلَّ.

قال سُبحانه وتعالَى : ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (١).

والشفعاءُ عند اللهِ هُم الملائكةُ والنبيُّون والمؤمنون. وتبدأُ شفاعةُ هؤلاء بعد أنْ يتحمّل سيِّدُنا محمدٌ ﷺ الشفاعةَ العُظْمَى.. كي يبدأ فصلُ الخِطابِ بيْنَ الخلائِقِ؛ فيكونَ هذا النبيُّ العظيمُ أوّلَ شافعٍ، أى: طالبِ

(١) سورة الزمر الآية ٤٤.

للشفاعَةِ، وأَوَّلَ مُشـفَّعٍ، أَى: مقبولَ الشفاعةِ... وتتوالَى الشَّفاعاتُ بعد ذلك، كلٌّ فيما يُحبُ رَبُّنا ويرْضَى...

الملائكةُ تَشْـفَعُ للمُؤمنين الصَّالحين، والأنبياءُ يَشْفَعُون فِى أَقوامِهم، والـمُؤمنون يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لبعضٍ..

وإذا انتهى هؤلاءِ جميعًا من شـفاعاتِهم التـى ارتضاها اللهُ عزَ وجلَ وأَذِنَ لهـم فيها، تظَلُّ فِى جهنَّم طوائفُ من الخلائِق لم تنَلْهُم شـفاعةُ الشافِعين.. وهذه الطوائفُ من الـمُؤمنين، إلَّا إنَّ إيمانَهم ويقينَهم تجرَّد عن العملِ الصالحِ؛ فاستحقُّوا أَحْقابا يقضُونها فِى النَّارِ..

هـؤلاء المؤمنون الذيـن لم يعملوا خيرًا قـطُّ، ولم تشـملهم شـفاعة الشـافعين.. تتداركُهُـم فِى النهايةِ رَحْمةُ اللهِ عـزَّ وجلَّ فيَخْرُجون من النَّار، ويَدْخُلون الْجَنَّةَ؛ ويُعْرَفون بيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بأَنَّهمْ عُتَقاءُ اللهِ..

إنَّ ميـزانَ العدلِ الإلهىِّ دقيقٌ، لايظلِم مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وليْس من حقِّ أَحدٍ أَنْ يُهَوِّنَ مِنْ أَمرِ المعصيةِ، اتِّكالًا عَلَى الشفاعةِ، فإنَّ الشفاعةَ ليستْ خاضِعَةً لأَهْـواءِ البشـرِ، ولاتنْبَغِى العـذابَ الـمُؤقَّت، ولاتَعْنِى الفـوزَ بالْجَنَّةِ - ابتداءً - لكلِّ أَحدٍ.. فالحديثُ الشريفُ الذى معنا يُثْبِت أَنَّ هؤلاءِ العُتَقاءَ قدْ قَضَوْا فِى النَّارِ أَحْقابًا كثيرةً حتى تداركَتْهُمْ رحمةُ الرَّحْمن..

شفاعةُ الشَّهيد

أخرج أبو داود وابن حبان بإسنادهما عن أبي الدرداء – ﷺ – قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

الشَّهيدُ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ..

***

للشهيد منزلة رفيعة في الإسلام، فهو إنسان قدَّم نفسَه فداء لدينه وأُمَّتِه. وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ودافع عن العرض والكرامة حتى قتل.. وقد جعل الله الشهيد في أعلى درجات الجنة، وامتنَّ عليه بنعم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وخصَّه بحياةٍ برزخية متميزة، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ – ١٧١.

ولعِظَم هذه المنزلةِ قال ﷺ : (والَّذى نَفسى بيَدِهِ: لَوَدِدْتُ أَنِّى أُقاتِلُ فِى سَبيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيا فأُقْتَلُ، ثُمَّ أحيا فأُقْتَلُ)..

ولقد كان الصحابة رضىَ اللهُ عنهم يؤثرون الجهادَ على كلِّ مُتَع الحياةِ، حتى لقد خرج أحدُهمْ ليلةَ عُرْسِه لمّا سمع النِّداء بالجهادِ، فمات شهيدًا، فغسّلتْه الملائكة..

والشهيدُ مُقدّم عند الله تبارك وتعالى وله شفاعةٌ فى أهله الذين جمعَهم به الإيمانُ وشملَتْهم كلمةُ التوحيد. وفى حديثٍ رواه أحمدُ بإسنادٍ حسنٍ عن عُبادةَ بنِ الصّامتِ ﷺ، عن النبىِّ ﷺ قال : «إنَّ لِلشَّهيدِ عِنْدَ اللهِ سَبْعَ خِصالٍ: أنْ يَغْفِرَ لَهُ فِى أوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإيمانِ، وَيُجارَ مِنْ عَذابِ الْقَبرِ، وَيأمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الأكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأسِهِ تاجُ الْوَقارِ، الياقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَافيها، وَيُزَوَّجَ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ العِينِ، وَيَشْفَعَ فِى سَبْعِينَ مِنْ أقارِبِهِ.

وهذه الشفاعةُ للشهيدِ هى فى إطارها الشرعىِّ، فهى بإذنِ اللهِ، ولمن يَرضَى عنه اللهُ، وهى خاصةٌ بجماعةِ المؤمنين.. قال تبارك وتعالى:

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (١).

وقال جَلَّ شأنُه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٨.

شَفاعةُ قارئ القُرْآن

أخرج الترمذيُّ وابن ماجه بإسنادِهما عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فاسْتَظْهَرَهُ، فَأَحَلَّ حلالَهُ وَحَرَّمَ حَرامَهُ: أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ»

* * *

مِن معالمِ الحياةِ الإسلاميةِ حِفظُ القرآنِ وتحفيظُهُ، كيْ تتواصلَ السلسةُ المُتَواتِرَةُ بنقلِ القرآنِ المجيدِ فِي أجْيالِ الأُمَّةِ سليمًا من التحريفِ، بعيدًا عن التَّبْديلِ والتَّغْيير، تحقيقًا لِوَعْدِ الله فِي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (١).

ثُمَّ إنَّ الأُمَّةَ تَرْتهِنُ سعادتُها فِي الأولى والآخرةِ بالولاءِ لهذا الكتابِ الخالدِ، فهو ذِكْرُها وشَرَفُها، قال تبارَك وتعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ۝٤٤﴾ (٢).

وقال جلَّ شأنُه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ (٣).

(١) سورة الحجر الآية ٩.
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤.
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠.

وقـارئُ القرآنِ العاملُ بـهِ، المُلْتزمُ بأَحْكامِـهِ، المُعتزُّ بدينهِ. له منزلـةٌ رفيعةٌ عند اللهِ عزَّ وجلَّ، فهو يدْخُـلُ الْجَنَّةَ مكَرَّمًا، ويعلو فِي درجاتِها بقدرِ مايحْفظ. فَفِي حديثٍ رواه أبو داودَ وابنُ حِبَّانَ والترمذىُّ وقال حسـن صحيح.. قال عليه الصلاة والسـلام: «يُقالُ لصاحِبِ القُرْآنِ اقْـرَأْ وارْقَ، وَرَتِّـلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّـلُ فِى الدُّنْيا؛ فَـإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُها».

ومن تكريمِ اللهِ تبارك وتعالى لِقارئِ القرآنِ أَنْ يمنحَه شـفاعةً مقبولةً لجماعـةٍ من أَهْلِ بيْتِهِ، كلُّهم قد وجبتْ لهُـمُ النَّارُ.. أى إنهم ارتكبوا معاصِـىَ يترتب عليْها وعيدُ إلهى، لكِنَّ هـذِهِ المعاصِىَ لم تُخرجْهمْ عن دائـرةِ الإيمان، فإنَّ الكافِرَ مُخَلَّدٌ فِى جهنَّـم، لايموتُ فِيها ولايحْيا.. أَمَّا العاصى فيسـتحقُّ العذابَ بقدرِ معصيتِه، ثـم يُعَذَّبُ عذابًا مؤقَّتًا، وقد يعْفو اللهُ عزَّ وجلَّ لحكمةٍ يعْلمُها..

هنا يأتى قارئُ القرآن المُسـتظهر له، أَى: الحافظُ لآياتِهِ، والذى يُحِلَّ حلالَه ويُحرِّم حرامَهُ، أى: المُلتزمُ بالأحكام الشـرعيةِ، فيَشْفَعُ فِى عشـرةٍ مـن أهلِهِ، بعد أَنْ يـأْذنَ اللهُ ويرضى. وتكونُ هذه الشـفاعة مقبولةً إمّا بالعفوِ المُطلقِ، وإما بإخراجهم مِن العذابِ المُؤَقَّتِ، وذلك على سبيلِ التكريمِ لحمَلةِ القرآنِ والإعلاءِ من شأنِهم..

شَفاعَةُ الْمُصَلِّينَ عَلَى الْجَنازَةِ

أخرج مسلمٌ فِي صحيحِه، بِسندِه عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، عن النبيِّ ﷺ قال:

«ما مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ: إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ».

***

للمسلمِ حُقوقٌ على مجتمعِه: حيًّا ومَيِّتًا. وكرامةُ الإنسانِ فِي حالِ مَوْتِه ككرامَتِه فِي حالِ حياتِه..

وإذا كان الناسُ يستقبلون الإنسانَ الوليدَ بفرحٍ غامرٍ، فإنه يجب عليْهِمْ توديعُه فِي نهايةِ حياتِه بدُعاءٍ خالِصٍ..

وقد شرَعَ الإسلامُ صلاةَ الجنازةِ على الميِّت. وهِى أَرْبَعُ تكْبيراتٍ بلا رُكوعٍ ولا سُجودٍ، يقرأُ عقِبَ التكبيرةِ الأُولى سورةَ الفاتحةِ، ويُصَلِّى على النبيِّ ﷺ عقِبَ الثانيةِ، ويدْعُو للمَيِّتِ عقِبَ الثالِثةِ، ثُمَّ يقولُ فِي الرابعةِ: اللَّهُمَّ لاتَحْرِمْنا أَجْرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ، واغْفِرْ لَنا وَلَهُ» ثمَّ يُسَلِّم..

وللصلاةِ على الجنازةِ وتشييعِها فضلٌ كَبيرٌ.. وفِى صحيحِ مُسْلِمٍ بسندِه عنْ أبى هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْها: فَلَهُ قِيراطٌ، وَمَنْ شَهِدَها حَتَّى تُدْفَنَ: فَلَهُ قِيراطانِ».

قِيلَ وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ» ..

والقيراط مقدارٌ من الثواب معلومٌ عند الله عزّ وجلّ..

والذين يُصَلُّون على الـمَيِّتِ ويدْعُون له: إنَّما هم شُـفعاءُ لهذا الـميِّتِ عنـد الله تبـارك وتعالَى، فإذا اسـتجاب الله دُعاءَهُم فقد شـفَّعهم فيه، أَى: قبلَ شفاعتَهم؛ فغفر للميِّت ورفع درجاتِه في النعيم الـمُقيم..

والحديـث الذى معنا يصـل بعددِ الـمُصَلِّين الشُّـفعاء إِلَى مِائَةٍ، لكن جاءتْ رواية أُخرى فى صحيح مسلم بسنده عن ابن عباس قال: سمِعْتُ رسـولَ الله ﷺ يقولُ: ما مِنْ رَجُلٍ مُسْـلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لايُشْرِكُونَ باللهِ شَيئًا: إِلَّا شَفَّعَهُم اللهُ فِيهِ» .

وجاءت رواياتٌ فى السُّـنن تجعل الشـفاعة لثلاثة صفوفٍ قلَّ العددُ أَوْ كَثُرَ، وللعلمـاء توجيهاتٌ لهذه الرواياتِ منها : أَنَّ العددَ لامفهومَ لـه، والمُـراد هو الكثـرةُ مطلقًا دون التقيُّـدِ بعددٍ مُعـيَّن، وأن تعدُّد الرواياتِ نشأ مِنْ تعدُّدِ التسـاؤلاتِ، فأجابَ الرسـولُ ﷺ كلَّ سائلٍ بما يُناسِبُه. ولا يَلْزَم من قبولِ الشفاعةِ من مائةٍ عدمُ قبولِها مما دونَ ذلكَ.. فكلُّ من صلَّى على الـمَيِّتِ فهو داعٍ له وشـفيعٌ لـه. وقد وعد الله ووعْدُه الحقُّ – أَنْ يقبلَ الدُّعاءَ مِنْ عبادِه الصالحِين..

فالدعاءُ للميِّتِ هو لوْنٌ من الشفاعةِ المقبولةِ عند اللهِ عزَّ وجلَّ.

شفاعةُ القُرآنِ الكَرِيمِ

أخرج مسلمٌ في صحيحِه عن أبي أُمامةَ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول:

«اقْرَأُوا القُرْآنَ، فَإِنَّهُ يأتي يَوْمَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ».

***

قراءةُ القرآنِ مِنَ القُرُباتِ التي يعْظُم ثوابُها عند اللهِ تبارَك وتعالَى، لأنها عِلْمٌ وعملٌ، ذِكْرٌ وعِبادةٌ، دُعاءٌ ومُناجاة..

فقراءة القرآنِ تُصحِّح العقيدةَ، وتُبَيِّن صالحَ الأعمالِ، وتصِلُ القلبَ باللهِ، وتجعلُ اللِّسانَ رطْبًا بذِكْرِ الله، وتدفع المسلمَ إلَى الضراعةِ الخاشعةِ للهِ، ولهذا جاء في حديثٍ رواه الحاكمُ وصحّحه:

«إنَّ هذا القُرْآنَ: مَأْدُبَةُ اللهِ، فاقْبَلُوا مَأْدُبَتَهُ ما اسْتَطَعْتُم.. إنَّ هذا القُرْآنَ: حَبْلُ اللهِ المتين، والنُّورُ الْمُبِينُ، والشِّفاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَن اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَنَجاةٌ لِمَن اتَّبَعَهُ، لايَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلا تَنْقضِي عَجائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ.. اتْلُوهُ، فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلى تِلاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَناتٍ.. أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ: (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ، وَلامٌ، وَمِيمٌ».

وفى حديثٍ رواه الترمذىُّ وقال حسن صحيح: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتابِ اللهِ: فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثالِها.. لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ: حَرْفٌ، وَلامٌ: حَرْفٌ، وَمِيمٌ: حَرْفٌ.

وشفاعةُ القرآنِ المجيدِ لأصحابِه يومَ القيامةِ تظاهرتْ عليها نُصوصُ الأحاديثِ.أمّا كيْفِيَّة هذه الشفاعةِ وحقيقتُها، ومُناجاةُ القرآنِ للهِ عزَّ وجلَّ: ممّا نُفوِّض عِلْمَه إلَى الخَلَّاقِ العلِيم.

ونُؤكِّد أنَّ شفاعةَ القرآنِ تعْنِى فِى النِّهايةِ مايمْنحُه اللهُ لقارئِ القرآنِ من ثوابٍ عظيمٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ ونِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى..

وفِى حديثٍ رواه ابنُ حِبّان عن جابرٍ – ﷺ – قال: قال رسول الله ﷺ : «اَلْقُرْآنُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ.. مَنْ جَعَلَهُ أَمامَهُ، قادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ : ساقَهُ إِلَى النَّارِ» .

فالقرآنُ شافعٌ، أى : طالبٌ للشفاعة لأهْلِه، ومُشَفَّعٌ، أَىْ: مَقْبُولُ الشَّفاعةِ عند اللهِ عزّ وجلّ، وما حِلٌ، أى: ساعٍ إلَى الخيرِ، أو : خصمٌ مُجادلٌ عن صاحبِهِ، ومُصَدَّقٌ، أى : يُصدِّقه اللهُ فيما يقولهُ عن حمَلَةِ القرآنِ المُعَظِّمين لشعائرِ اللهِ تبارك وتعالَى.

***

شَفاعةُ سُورَتَي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرانَ

أخرج مسلمٌ في صحيحه بسنده عن أبي أُمامة الباهليّ، قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اِقْرَأوا الزَّهْراوَيْن: اَلبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرانَ؛ فَإنَّهُما تَأْتيانِ يَوْمَ الْقِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ أوْ كَأنَّهما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوافَّ: تُحاجَّانِ عَنْ أَصْحابِهِما».

***

لسورتي البقرة وآلِ عِمْرانَ فضلٌ خاصٌّ ومنزلةٌ كريمةٌ؛ فهما تُسمّيان الزَّهْراوَيْن، لكثرةِ نُورِهما، وعِظَم هدايتِهما، واشتِمالِهما على أُمورِ الدِّينِ وعقائدِ التوحيدِ وأحكامِ التشريعِ بتفصيلٍ كبيرٍ..

وعندما يقرأُ المسلمُ القرآنَ المجيدَ ويتأمل هاتَيْن السُّورتيْن تعظُمُ في نفسه نعمةُ اللهِ عليه، ويُشْرِق قلبُه بنورِ الله؛ فيتعلّم ما يسْعَد به في الدُّنيا والآخرةِ. وقد اشتملتْ سورةُ البقرةِ على أعظم آيةٍ في القرآنِ وهي آيةُ الكرسيِّ، وأطولِ آيةٍ وهي آيةُ المُداينَة، ونزلَت الآيتان الأخيرتان في سورةِ البقرةِ من كنزٍ تحت عرشِ الرحمن، ومن قرأهُما في ليلةٍ كَفَتاه.

وسورةُ آلِ عِمْرانَ تحْكي تاريخَ المُسْلمين في بدْرٍ وأُحُدٍ، وتُحدّد علاقةَ المُسْلمين بأهْلِ الكتابِ، وتتحدّث عن فريقيْن مُتقابلين بينهُما بُعد المشرقيْن هما: المُنافقون الذين قالوا لإخْوانِهِمْ وَقَعَدوا لَوْ أطاعُونا

مـا قُتِلُوا.. والشُّـهداءُ الذينَ قال لَهُـمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيمانًا، وَقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الْوَكيلُ..

وكانت الآياتُ العَشْرُ فِي ختام سورةِ آلِ عِمرانَ يقومِ بها النبيُّ ليْلا، وينظُر فِي السـماءِ ويقرؤها ثم يقولُ: «وَيْلٌ لِمَـنْ يَقْرَأُ هذِهِ الآياتِ، ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّـرْ» : ثُـمَّ يبْكي ويدعو اللهَ قائلا: اَللَّهُمَّ اجْعَـلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِـي سَمْعِي نُورًا، وَفِـي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِيني نُـورًا، وعَنْ شِمالِي نُـورًا، وَمِـنْ بَيْنِ يَـدَيَّ نُـورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُـورًا ، وَمِـنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» .

وهاتانِ السورتانِ تأتيانِ يوْمَ القيامةِ شافِعتيْن لأصحابِهما. والتعبيرُ بالصُّحبةِ يدلُّ على كَثْرةِ المُلازمةِ فى التِّلاوةِ والتأمُّلِ والعملِ والالتِزام. هاتانِ السورتانِ ضرَبَ الرسولُ الكريمُ لهما ثلاثةَ أمثلةٍ «كَأَنَّهما غَمامَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُمـا غَيايَتَـانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقَـانِ مِنْ طَيْرٍ صَـوافَّ» والغَمامَتان والغَيايتان: كُلُّ شيءٍ أَظلَّ الإنسانَ فَوْقَ رأسِـه، والفِرْقانِ: الجماعتان..

تتقدَّم هاتانِ السورتانِ بهذا الشكل، تُدافِعان عن صاحبِهما وتَشْفعانِ له عند اللهِ عزّ وجلّ، ويجعلُهما اللهُ تنْطِقانِ بما كان يقوم به المسـلمُ: من عنايةٍ بالقرآنِ ورعايةٍ لآدابِه والتزامٍ بأحكامِه؛ فيقبل اللهُ تبارك وتعالَى شفاعتَهما، ويُحقِّق لصاحبِهما فوْزًا وفضلًا عظيمًا ..

شَفاعةُ سُورَةِ المُلْك

روى

أبو داود والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسن، عن أبي هريرةَ ﷺ، قال: قال ﷺ: «مِنَ القُرْآنِ سُورَةٌ، ثَلاثُونَ آيَةً: شَفَعَتْ لِرَجُلٍ، حتَّى غُفِرَ لَهُ» ..

* * *

من بركةِ القرآنِ أنه يشْفع لأصحابِهِ العاملين به المُلتزمين بأحكامِه، المُوفِينَ بعهدِ الله. وشفاعةُ القرآنِ قد تقعُ من القرآنِ كلِّه، أو من بعضِ سُوَرِه.. وجاءت الرواياتُ تُثبت الشفاعة لسورةِ البقرةِ وسورةِ آلِ عِمْرانَ.. وقد شرحنا ذلك فيما سبَق..

والحديث الذى بين أيدينا يُخبرُنا فيه الصادقُ المصدوقُ ﷺ بشفاعةِ سورةِ المُلْكِ. وهى سورةٌ مكِّيَّة، عَدَدُ آياتِها ثلاثون، وتبدأُ بتقديسِ اللهِ وتنزيهِه، وإثباتِ قُدرتِه المُطلقةِ وسُلطانِه العظيمِ على المُلكِ والمَلَكوتِ. قال تبارك وتعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ (١)

وتسْمو بفعلِ الإنسانِ إلَى آفاقِ الماضِى والحاضرِ والمُستقبل، وتبسطُ أمامَ ناظِرَيْه آياتِ الأنفسِ والآفاق.. قال تبارك وتعالى :

(١) سورة الملك الآية ١.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (١).

وتدفعُ هذه السورةُ الكريمةُ الناسَ إلى المسارعةِ إلى الخيرِ والبرِّ والمعروفِ، قبلَ أنْ يأتيَ يومٌ لامردَّ له من اللهِ، يقفُ فيه الكافرون موقفَ الهوانِ والحسرة:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ۖ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (٢).

وتعددُ السورةُ نِعَمَ اللهِ في الخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتةِ؛ لتصلَ إلى جوهرِ الحقيقةِ في إيجازٍ شديد:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣).

فالمبدأ من اللهِ، والمرجعُ إلى اللهِ، ولامجالَ لقولِ قائل:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤)

فالجوابُ حاضرٌ وبدَهِيّ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥)

فالموعدُ لن يُخلَفَ، ومُهِمّةُ الرسولِ هي البلاغُ.

والعاقلُ من استخدم نِعَمَ اللهِ في طاعةِ الله..

---

(١) سورة الملك الآية ٣.

(٢) سورة الملك الآية ١٠ - ١١.

(٣) سورة الملك الآية ٢٤.

(٤) سورة الملك الآية ٢٥.

(٥) سورة الملك الآية ٢٦.

وهكذا فإنّ تِلاوةَ سورةِ المُلكِ، والتأمُّلَ الواعِيَ فِي آياتِها، وانشراحَ الصَّدرِ بها - عمَلا وسُلوكا - يجعلُ المسلمَ محَلا لشفاعةِ هذِه السورةِ الكريمةِ، وتقودُه حتى يغفرَ اللهُ له، وتُسْلِمُه إلَى الجنةِ ونعيمِها..

شَفاعَةُ الأَذانِ

أخرج

البخاريُّ فِي صحيحِهِ بسندِهِ عن المازنيِّ عن أَبيه، أنه أخبره أن أبا سعيدٍ الخُدْرِيَّ قَال له: إِنِّي أَراكَ تُحِبُّ الغَنَمَ والبادِيَة، فإذا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ - أَوْ بادِيَتِك - فَأَذَّنْتَ بالصَّلاةِ، فارْفَعْ صَوْتَكَ بالنِّداءِ، فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ ولا إِنْسٌ، وَلا شَيْءٌ: إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ.. قال أَبو سعيدٍ: سمعتُه من رسولِ الله ﷺ.

***

أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ صحابيٌّ جليلٌ قدّم نصيحةً لأحدِ إخوانِه المسلمين، عندما علِم أنه يُحِبُّ الخلاءَ، لكوْنِه يرعى الغنمَ.. وقد يجُرُّه ذلك إلى أماكنَ نائيةٍ. فأراد أبو سعيدٍ أن يُرشِدَ صاحبَه إلى خيرٍ يجبُ أنْ يحرص عليه، وهو رفعُ الصوتِ بالأذانِ فِي تلكَ الأماكنِ البعيدةِ عن العُمران..

والأذانُ: حقُّ الوقْتِ.. والإقامةُ: حقُّ الصلاةِ. أى إنّ الأذانَ للإعلامِ بدخولِ وقتِ الفريضةِ، فلا يتعددُ. فالأذانُ واحدٌ فى المسجدِ أو فى أى مكانٍ عند بدء الوقت. أمّا الإقامةُ فتتعددُ كلما تعدّدت الصلاةُ لمُنفردٍ أو لجماعة.

فراعى الغنم فى باديته يُؤَذِّنُ ويرفعُ الصوتَ بالأذانِ للإعلامِ بدخولِ وقتِ الصلاةِ، حتى ولو لم يحضُرْ أحدٌ ليصلّىَ معه، لأنَّ هناكَ حِكمةً

أخرى بالغةً، وهى أنه لايسمع مدى صوتِ المُؤذِّن جِنٌ ولا إنسٌ ولا شَيْءٌ: إلَّا شهد له يوْمَ القِيامةِ.

ومعنى مدى صوتِ المُؤذِّنِ، أى: غايةِ صوْتِه ومُنتهَى مايصِل إليه، فإذا كان الأبْعدُ، وهو الذى يسمع الصوتَ ضعيفًا، يشْهدُ للمؤذِّن؛ فإنَّ الأقربَ وهو الذى يسمعُ الصوْتَ قويًا: يكونُ أوْلى بالشهادةِ..

والتعبيرُ بقوْلِهِ: «ولاشَيْءٌ» يشْمل الحجَر والشجَر والحيوانَ، فهو من العامِّ بعد الخاصِّ.. وهذه الشهادةُ من السامعين للأذانِ شهادةُ تكريم وشفاعةٌ للمؤذِّن، فهؤلاء السامعون على تنوُّع أجناسِهم وأنواعِهم - يُتقدَّمون شُفعاءَ عند اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيتقبلُ الشَّفاعةَ منهُمْ، وهو أعْلمُ بهم، ويتفضَّل سُبحانَه على المُؤذِّنين بمزيدِ الثَّوابِ والأجرِ والنعيم..

والشهادةُ يوْمَ القيامةِ نوعانِ: شهادةٌ تفْضحُ وشهادةٌ ترْفعُ، فشهادةُ الفَضْح كما فى قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

وشهادةُ الرِّفعة والتكريم: كشهادةِ القرآنِ لأهلِه، وشهادةِ الأذانِ لأصحابِه.

---

(١) سورة فصلت الآيات ١٩- ٢١.

شَفاعَةُ الصِّيامِ

روى أحمدُ والطبرانيُّ والحاكمُ - وقال: صحيحٌ على شرط مسلم - عن عبدِ اللهِ بن عمرو رضي اللهُ عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الصِّيامُ والقُرْآنُ يَشْفَعانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصِّيامُ: رَبِّ إنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّرابَ بالنَّهارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.. وَيَقُولُ القُرْآنُ: رَبِّ إنِّي مَنَعْتُهُ النَّوْمَ باللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.. فَيُشَفَّعانِ..»

***

الصِّيام فريضةٌ مُحكمة ارتبطتْ بشهر رمضان، ذلِكُمُ الشهر الكريم الذى تلقّى فيه الرسولُ ﷺ الوحْيَ الإلهيَّ، وتعاهدَه المُصطفى بمزيدِ العبادَةِ والطاعةِ للهِ عزّ وجلّ..

والصيامُ عبادةٌ لم يتقرّب بها أحدٌ لغيرِ اللهِ تبارك وتعالَى، ولا يداخلها الرِّياءُ، وبها يتشبَّه المُسلم بالملأِ الأعْلى الذين لايأكلون ولايشربون ولا يتناسلون..

ولهذا خصّه الله تبارك وتعالى بمزيد الثوابِ والأجرِ، وأضافه إلى نفسِه العَلِيَّة. ففي صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضاعَفُ: الْحَسَنَةُ عَشْرُ أمْثالِها إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.

قالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: [إلَّا الصَّوْمَ، فَإنَّهُ لِي، وأنا أَجْزِي بِهِ. يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعامَهُ مِنْ أَجْلِي]، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فطره، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلوفُ فَمِ الصائمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

هذا الصومُ إذا أدّاه المُسلمُ بآدابِهِ وكمالاتِهِ يكونُ شفيعًا للصائمين يومَ القيامة، فيقفُ الصومُ ليُدافعَ عن أهلِه، ويذكُرَ محاسنَ أعمالِهم، ويُعدِّدَ فضائلَ سُلوكِهِمْ، ويقولَ بلسانٍ يعلمُه اللهُ تبارك وتعالَى وبكيفيَّةٍ يخلُقُها المَوْلَى جلَّ شأنُه، وبطريقةٍ ندعُها لِعلّامِ الغُيوب: «رَبِّ، إنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّرابَ بالنَّهارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.»

أي: يارَبِّ! اِقبَلْ شفاعتي للصائمين، فأنا شهيدٌ على التزامِهم بأحكامِ الصيامِ.. ويستجيبُ اللهُ تبارك وتعالى لشفاعةِ الصِّيام، فيُنزِلُ سكينةً ورحمةً على الصائمينَ، ويُدخِلُهم الجنَّةَ من بابِ الرَّيانِ، ويرْفعُهم مكانًا عليًّا في الجِنانِ، ويُمدُّهم بآلاءٍ ونِعَمٍ فوْقَ الوصفِ والخيالِ..

كلُّ ذلك بتدبيرٍ إلهيٍّ وعِلمٍ أزلِيٍّ.. وليستْ الشفاعةُ مُفاجأةً للهِ ولا إلزامًا له سبحانه. فالشفاعةُ عندَ اللهِ ليستْ كالشفاعةِ عند البشرِ. والحِكمةُ من شفاعةِ الأعمالِ هي الترغيبُ في الصالحاتِ، وحثُّ المُكلَّفين على مُداومةِ الطَّاعاتِ..

***